سورة الكافرون

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

مقصد السورة: بيان حقيقة التوحيد العملي.

وعن ابن عباس رضي الله عنه، أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ الله ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالا فَيَكُونُ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ وَيَطَأُونَ عَقِبَهُ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلا تَذْكُرْهَا بِشَرٍّ، فَإِنْ بَغَضْتَ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، وَلَكَ فِيهَا صَلاحٌ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالُوا: تَعْبُدُ إِلَهَنَا سَنَةً؛ اللاتَ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، قَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي. فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ الله عز وجل مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١-٢] السُّورَةَ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤] ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦])[1].

(قُلْ) الخطاب للنبي ﷺ.

وهذه اللفظة، جزء من السورة، كما أنها جزء من جميع القواقل، والقواقل هي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾

(يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) المنادى: مشركو مكة

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ يعني: لا أعبد في الحال، ولا في الماضي، ولا في المستقبل، ما تعبدون من الأصنام، فتبرأ من عبادة الأصنام، وغيرها، مطلقا.

---

[1] المعجم الصغير للطبراني (751)، وحسنه الألباني في صحيح السيرة (206).

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾ يعني: ولا أنتم عابدون، في الحال، ما أعبد. فهم في هذه الحال، لا يعبدون الله عز وجل، وإن زعموا ذلك، فقد نفى عنهم وقوع عبادة الله، لأن عبادتهم التي يزعمون أنها لله، مشوبة بالشرك.

وعبادة الله، لا يمكن أن تكون إلا خالصة، فعن أَبِي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: (قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) رواه مسلم[٢]

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾: جاءت هنا بصيغة، الجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والدوام وفي الآية الثانية من السورة، جاءت بصيغة الجملة الفعلية الدالة على الحال والمضارعة (لا أعبد). فقوله (وَلَا أَنَا عَابِدٌ) يعني في المستقبل، والمعنى: اقطعوا الأمل! لا أوافقكم على عبادتكم، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ يعني: أنكم أنتم أيضا،لا في الحال، ولا المستقبل، تعبدون ما أعبد، ما دمتم مستمرين، على الشرك.

(لَكُمْ دِينُكُمْ) وهو دين الشرك.

(وَلِيَ دِينِ) وهو دين الإسلام، والتوحيد. هكذا، بحذف الياء، باتفاق القراء السبعة، وإن كان غير السبعة، قد أثبتها، فقرأ: (ديني)

ولو تأملنا في هذه السورة، لوجدنا فيها تكرارًا، وهذا التكرار، في الحقيقة، ليس متطابقًا، بل جاء مرة، بالجملة الفعلية: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾، ومرة، بالجملة الاسمية: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾ والجملة الاسمية، تدل على: الثبوت، والاستمرار.

وفائدة التكرار: التأكيد على المفاصلة التامة، بين عبادته، وعبادتهم، وبين دينه، ودينهم. فهذه السورة، تتعلق بأمر العبادة، التي هي التوحيد العملي.

---

[٢] صحيح مسلم (2985).

فإن التوحيد ينقسم إلى قسمين:

- توحيد عملي.
- وتوحيد علمي

فالنوع الأول: التوحيد العملي، ويسمي أيضا: توحيد العبادة، وتوحيد الإلوهية، وتوحيد القصد والطلب، وكل هذه الاصطلاحات الأربعة، بمعنى واحد. وهذا النوع من التوحيد، هو ما دلت عليه سورة (الكافرون) فهي متخصصة في توحيد العبادة.

النوع الثاني: التوحيد العلمي، ويسمى أيضا التوحيد النظري، وتوحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فهذه أربعة اصطلاحات مترادفة. وهذا النوع من التوحيد، هو الذي تدل عليه سورة (الإخلاص) كما سيأتي إن شاء الله.

فلا يتم الدين إلا باجتماع أمرين:

أحدهما: عبادة الله وحده، والثانية البراءة من الشرك،كما قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦])، وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥] يعني مائلين عن الشرك، وقال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]

وقد كان النبي ﷺ يقرن بين، هاتين، السورتين: سورة (الكافرون)، وسورة (الإخلاص)، في قراءة الصلاة، لما فيهما من الدلالة، على التوحيد، بنوعيه، فيقرأهما في:

- راتبة الفجر.
- ركعتي الطواف.
- الوتر يقرأ في الأولى بـ(سبح)، وفي الثانية بـ(قل يا أيها الكافرون)، وفي الثالثة بـ(قل هو الله احد).

تنزل هذه الآيات على النبي ﷺ، وهو في حال استضعاف، حينما كان في مكة، ومع ذلك يتوجه، بهذا الخطاب العقدي العظيم، الواضح، الذي لا لبس فيه، ولا غموض.

وربما قال قائل: ألا يسع في وقت الضعف، أن يُلين الداعية العبارة، ليدفع عن نفسه؟ نقول: لو ساغ ذلك في شيء، لم يسغ في باب الاعتقاد. لابد من الوضوح في طرح العقيدة، وبيانها، وعدم اللبس على الناس، لاسيما لأهل العلم، ومن يصدر عنهم العامة، فإن عليهم، من المسؤولية، ما ليس على غيرهم.

فالأمر ليس فيه أنصاف حلول، ولا تنازلات، ولا مماكسات! هذا دين الله ﷻ، لا يسع أحدًا، أن يزايد فيه، وأن يتنازل عن بعض ما أمر به. قد يسع الإنسان، أن يتقي تقاة، إذا لم يستطع أن يقول كلمة الحق، ولم يطق البلاء، وله في ذلك سعة، كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] لكن المرتبة العليا، والمقام الأسمى، لمن جهر بالحق، وصدع به، وهذا يتأكد في حق العلماء.

ولهذا وقف الإمام (أحمد بن حنبل)، رحمه الله، في عام الفتنة، وقفة قوية، مع أنه كان يسعه، أن يتأول. دخل عليه، مرة، على بن المديني، رحمه الله، وهو من كبار المحدثين، من رجال البخاري، فروى بسنده، حديث عمار: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :« مَا وَرَاءَكَ؟ ». قَالَ : شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ. قَالَ كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟) قَالَ : مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ. قَالَ: (إِنْ عَادُوا فَعُدْ)[٣]. فتنحى عنه الإمام أحمد، وولاه ظهره، وقال: لا يعرفون من الدين، إلا حديث عمار!، عمار ضرب، فأجابهم إلى بعض ما طلبوا، وأنتم قيل لكم: إنكم ستضربون، فأجبتموهم، إلى ما طلبوا. فقال: والله ما رأت عيناك مثلك.

فمن استطاع أن يقوم بدين الله، ويصدع بالحق، فهذا أعلى المراتب، ومن ضعف عن ذلك، فأمره إلى الله سبحانه وتعالى، لكن هذه السورة تؤكد أن أمر الدين، لا يجوز أن يداهن فيه، ولا أن يلبس على الناس فيه.

---

(٣) المستدرك (3362) وصححه الحاكم، السنن الكبري للبيهقي (16673).

يجب أن يُبين الإسلام، نقيًا، بريئًا، من كل شائبة، ولا يجوز بحال، من الأحوال، أن يمزج باليهودية، أو النصرانية، أو غيرها، من الملل الوثنية، ولا أن تجعل الأديان على حد سواء، ولا أن يُسوَّغ اعتناق أي منها، بدعوى أن جميعها صحيح، وأنها توصل إلى الله! ولا الدعوة المطلقة إلى الاعتراف بالآخر! واحترام قيم الأخر! ونحو ذلك من العبارات، التي توقع في نفوس الجهال، أن لكل أحد أن يتدين بما شاء! فيجب أن يبين أن دين الله تعالى، دين واحد، هو الإسلام، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

ومعنى قوله ﷺ: "وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهُودِىٌّ، وَلاَ نَصْرَانِىٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" رواه مسلم[٤] فلا يجوز أن تسمى، اليهودية، والنصرانية، أديانا سماوية؛ لأن في ذلك تصحيح لها، ونسبة إلى دين الله ﷻ. وقد قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] وأنكر عليهم حينما قالوا ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

فلا يوجد دين سماوي، على وجه الأرض، من لدن آدم، إلى محمد ﷺ إلا دين الإسلام، وهو الإسلام، بالمعنى العام، الذي بعث الله به، جميع أنبيائه، وخاتمهم محمد ﷺ. وأما اليهودية، فهي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد التحريف، وأما النصرانية، فهي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام، بعد التحريف، فلهذا برّء الله إبراهيم عليه السلام منهما.

وليس صوابا، أن يقال: نجتمع على المشترك، والمتفق عليه، ونقصي المختلف فيه، ما هذا منهج النبي ﷺ ولا منهج الصحابة، ولا التابعين، ولا علماء الأمة الراسخين، بل

---

[٤] صحيح مسلم (135).

منهجهم ما أمر الله تعالى به، بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ثم تولى بنفسه سبحانه تفسير هذه الكلمة، ولم يدعها لتفسير مفسر، أو قول فقيه، فقال: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. هذه هي الكلمة السواء، أما ما ينادي به بعض المفكرين العصرانين، من البحث، عن نقاط الاتفاق بيننا، وبين اليهود، والنصارى، وإبرازها، وتحاشي نقاط الاختلاف، وإقصائها، وعدم مناقشة قضايا العقائد، فهذا خلاف المنهج القرآني، وخلاف المنهج النبوي، وخلاف منهج السلف الصالح، والسابقين، الأولين من هذه الأمة.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: وجوب المفاصلة، والبراءة من الكفار.

الفائدة الثانية: وضوح الخطاب، والبعد عن المداهنة.

الفائدة الثالثة: أن أصل العبادة: هو الإخلاص، والبراءة من الشرك،

الفائدة الرابعة: تسمية الشرك دينا. لقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ) ودينهم الشرك، وقوله في قصة يوسف ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف: ٧٦].

الفائدة الخامسة: الحذر من لبس الحق بالباطل.

سورة النصر

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

مقصد السورة: بيان حال المؤمن مع النصر.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ النصر الغلبة والتمكين، والمراد بـ(الفتح) هنا: فتح مكة، وقد وقع في رمضان، سنة ثمان من الهجرة.

﴿ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ ﴾ يعني: قبائل العرب.

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾: جماعات تلو جماعات، وقد كان الناس يسلم الواحد تلو الآخر، وبعد فتح مكة، أقبلت قبائل العرب على الإسلام بأجمعها؛ لأن العرب كانوا ينتظرون ما يقع بين النبي ﷺ، وقومه، إذ كانت قريش أعز قبائل العرب، وتقطن مكة، مهوى أفئدتهم. فلما نصره الله عليهم، ودخلوا في دين الله، صارت وقبائل العرب تفد إلى النبي ﷺ، في العام التاسع، الوفد تلو الوفد، حتى سُمي (عام الوفود).

ونصر الله للمؤمنين سنة كونية، قال ربنا ﷻ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ ﴾ [غافر: ٥١] فلابد من نصر الله.

وتأمل حال نبينا ﷺ، حين خرج من مكة، شريدا، طريدا، يتعقبه الحاقدون، والطامعون، حتى كان يكمن نهارا، ويسير ليلا، مدة أسبوع، حتى بلغ المدينة، ثم بعد ثماني سنوات، يرجع فاتحًا، منتصرًا، ويدخل مكة، ويحكمه الله تعالى في رقابهم، ويقول: :« مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ ». قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ :« اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[٥] ، وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه كان من قوله ﷺ حين رقى

---

[٥] البيهقي في السنن الكبرى (18739) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة(1163)، السيرة النبوية لابن هشام (74/5).

على جبل الصفا " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ "رواه مسلم[٦].

فيجب الإيمان بنصر الله، والثقة بموعود الله، ولا يجوز القنوط من رحمة الله؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، فيجب على المؤمن: أن يحسن الظن بربه، ولا يجوز أن يعتقد الإنسان، أن الله يديل الباطل على الحق، إدالة مستمرة، فمن ظن ذلك، فقد أساء الظن بالله. نعم! قد يدال الباطل على الحق مؤقتًا، قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، لكن يعقبه نصر عزيز، وفتح مبين.

فإن قال قائل: كيف استيئس الرسل من نصر الله، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ ﴾ [يوسف: ١١٠]؟ قيل: إن الرسل لم يستيئسوا من نصر الله، وإنما استيئسوا من إيمان هؤلاء الأقوام المخاطبين، ولم ييئسوا من نصر الله.

وهذا يحتاج إلى يقين، وهذا اليقين لا يجده إلا المؤمنون؛ كما قال الله ﷻ في سورة الأحزاب ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأما المنافقون فقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] يقول أحدهم: ألا تعجبون يحدّثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا![٧].

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يعني: نزه ربك، متلبسًا بحمده، فالباء في قوله (بِحَمْدِ) للملابسة، أي: اجمع بين التسبيح - الذي هو التنزيه - والحمد.

---

[٦] صحيح مسلم (1218).

[٧] تفسير الطبري (42/19).

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ يعني: اطلب منه المغفرة، وهي: الستر، والتجاوز. ومنه سُمي (المغفر) الذي يجعل على الرأس، لأنه يستر الرأس، ويقيه.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ التوبة معناها: الرجوع. و(التواب): اسم للرب، ﷻ، متضمن لصفة التوبة؛ أي أنه كثير العود على عباده بالصفح والعفو. و(التواب) يطلق على العبد، ويطلق على الرب، فالعبد تواب، إذا كان كثير الرجوع إلى سيده، والرب تواب، لكثرة توبته على عبده، وهي نوعان:

الأول: إذن وتوفيق: كما في قوله الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، فتوبته عليهم سبقت توبتهم إليه.

الثاني: قبول واعتداد: كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: ٣٩].

وعن ابن عباس قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ» قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ» رواه البخاري [٨].

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: سنة الله الكونية، في إدالة الحق، على الباطل.

الفائدة الثانية: الحذر من اليأس من نصر الله.

---

[٨] صحيح البخاري (4294).

الفائدة الثالثة: أن فتح مكة، فتحٌ لما بعدها؛ لأنها أم القرى.

الفائدة الرابعة: صدق وعد الله.

الفائدة الخامسة: مقابلة النعم المتجددة بالتسبيح، والحمد، والاستغفار.

الفائدة السادسة: الإيذان بدنو أجل النبي ﷺ؛ لانتهاء مهمته، وأدائه رسالات ربه.

الفائدة السابعة: مشروعية الاستغفار، بعد الفراغ من العبادات.

الفائدة الثامنة: إثبات اسم التواب له تعالى، وما تضمنه من صفة (التوبة).